(8)

نـهار من أيام الخريف

نهار من أيام الخريف، بدأ ثقيلاً طويلا قاتماً، ومضى عاصفاً ، وأقبل الليل فسال الظلام على جوانب الكون كثيفا مطبقا، الريح عاصفة عنيفة باردة والسماء يغشاها سحاب أسحم ومطر سخي، أوراق الشجر تساقط مستسلمة، وسحف النخيل يتحدى العاصفة، والعاصفة تداعبه وتعبث به، فتشيع في أطراف الليل حفيفا موحشا يشبه أن يكون أنين أرواح هائمة في أودية العذاب، أصوات الذئاب يتجاوب بها الصدى، والكلاب ترد عليها بنباح قوي مختلط يتصل حيناً طويلا، ثم ينقطع لحظات، ثم يعود فيتصل ويختلط، على ان هذه الأصوات المختلطة المبهمة كانت تنجلي أحيانا عن نداء أو غناء يردده أحد الفلاحين في حقل بعيد، سكون موحش يثير القلق، ويحمل على الشك، ويدفع الرهبة إلى النفوس دفعا. . . وقف رضا قليلا ثم تردد في استئناف السير. . . لقد جسم له الوهم والخوف من الظلام أعمدة جاثمة تعترض الطريق كأنها اشباح سود، وكان رضا يقف أحياناً يتطاول بعنقه ويرهف سمعه ويضرب بعينيه في الظلام كأنما يبحث عن قبس أو هدى: إنه يحمل في جيبه مالاً كثيراً وهو يوجس خيفة، وهو فوق هذا وذاك يحس شيئاً من الجوع والتعب وبين بلده ساعةً وبعض ساعة فلماذا لا يبيت في بلدة قريبة وهي على بضع دقائق فقط ريثما يسفر الصبح؟ وتذكر صديقاً قديماً هو شيخ الخفر وأكبر الظن أنه سيطعمه من جوع ويؤمنه من خوف ويهيء له من امره راحة وأمناً. . . ومن أحق بهذا من شيخ الخفراء؟! ولكن (رضا) لا يستريح إلى هذا الحل ويتردد طويلاً قبل أن يبيت فيه لأنه

يعلم عن شيخ الخفراء ما ليس لنا به علم، إنه يخشى أن يجيئه الهلاك من مأمنه، شيخ الخفراء عتيد في الأجرام، وأكبر اليقين أنه لا يتورع من أن يضيف إليها فصولاً جديدة من الاجرام. ولكن أتراه يعتدي على ضيف ينزل بداره ويلجأ إليه؟ ربما! اخذ رضا يضطرب بين الشك واليقين ويتصارع في نفسه الأحجام والأقدام فلعل الله يجعل له فرجاً من الضيق، ومخرجاً من الحيرة، ومن الخوف أمناً وهدى. . .

أما عبد الجبار شيخ الخفراء فهو رجل مديد القامة، شديد البأس، قوي مفتول، له وجه تشيع في قسماته الصرامة، وعينان ينبعث منهما التحدي والشر، كان فيما مضى من أيامه قاطع طريق ويهدد يسلب الناس اموالهم اكرها، ولم يجد في القتل حرجاً ولا في السلب جناحاً، بل إنه ليعدها من مفاخره. وعبد الجبار فقد كان من القرويين الذين تغلب فيهم سيطرة الأجرام، ويتحكم في رجولتهم شر اسود في لون هذا الليل العاصف المدلهم، لم يكن يردعه قانون، ولا يمنعه عقل ولا عاطفة، عُين شيخاً للخفراء فزاد عبثه وما زال يصل أسبابه بأصدقائه القدماء من اللصوص والقتلة، يدلهم على مواطن الصيد ويمهد لهم سبل الإفلات. . .

واتصلت جرائمه واضطرب الأمن في بلده والبلاد القريبة، والناس يعلون أن لعبد الجبار يداً في كل شيء، لكنهم خائفون لا يهمسون، لأن لعبد الجبار عيناً ترقب الثرثار، ولأن الناس يدفعون هذا الصمت ثمناً لأرواحهم وأموالهم إشفاقاً من انتقامه وهم يؤدون إليه ما يفرض عليهم .

أما رضا فقد قلب الأمر غير مرة وانتهت المعركة في نفسه أخيراً. . . وتغلبت على وساوسه نوازع الثقة في الله ودوافع الخوف من السير في الظلام والبرد، وتعاونت هذه الأسباب كلها على أن تسوقه إلى بيت عبد الجبار ضيفاً. . .

طرق رضا باب عبد الجبار في رفق ففتح له وأحسن استقباله وقدم إليه طعاماً وأعقبه بالشاي، ثم سمر معه إلى وهن من الليل وتركه ليجول في البلاد جولة بعد أن أوصى به ابنه احمد أن يهيئ له فراشه في المندرة، سهر رضا واحمد ما طاب لهما، وسمرا ما تشقق بينهما الحديث وشربا الشاي غير مرة، ودخنا كثيراً ثم ثقلت أجفانهما وفترت أعضاؤهما ولحقهما الخمول، وأحسا الحاجة إلى الراحة فقام كل منهما إلى فراشه، ونام رضا بعد ان توكل على الله وأسلم إليه وجهه.

وعاد عبد الجبار بعد ما انتصف الليل وقد طوعت له نفسه أمراً، وأحسب أن هذا الأمر قد اختصم في نفسه طويلاً مع الواجب، واحسب أن بقايا المروءة المتناثرة في زوايا قلبه قد تجمعت فانطلقت تقرع أذنيه في عنف واتصال. . .! ربما لم يسمع، وأكبر الظن انه سمع، ولكنه سخر من ضميره وضحك من هذا الخور الذي لم يألفه في أعصابه، اتجه إلى الباب ففتحه ودار ببصره في الظلام والنجوم، ثم أرسل ضحكه مكبوتة كأنها في فحيح أفعى هائلة ثم انقلب إلى الداخل ثانية وأجمع رأيه قبل أن يبدله ما يرده، حمل الذئب (بلطته) وتسلل إلى المندرة فدخل ثم وقف وأنصت وتقدم إلى النائم فناوله ضربات متصلة قطعت ما بينه وبين العالم من أسباب الحياة.

اضطرب القتيل قليلاً ثم ساد السكون مرة أخرى. . .! وتحسس عبد الجبار جيب القتيل فلم يجد معه من المال قليلاً ولا كثيراً.

اذهلته الدهشة. .! أين اختفى المال الذي كان مع رضا.؟ لاشك أنه حفظه في مكان ما في نفس المندرة. . . ولم يتردد

عبد الجبار في أن يخفي أثر الجريمة أولاً. . . فلف الجثة وحزمها ثم حملها مطمئنا آمناً، لأن الشك ينحسر عنه !!

وللمرة الأولى أحس عبد الجبار رجفة تأخذ أعصابه وهماً مبهماً جائشاً يستبد بروحه ويضيق عليه أنفاسه، وثورة داخلية تصم أذنيه

وتدور برأسه. . . لقد أخذه الندم! وأفاق ضميره ولكن متى. . .!؟ سمع عبد الجبار وقع حوافر الخيل تأتي مسرعة وتناديه أن يقف. . إنهم شرطة الدورية! غامت الدنيا في عينيه وملكه اليأس ! قاتل! وشيخ خفراء!! جريمة ذات شعبتين، قاده الجند إلى منزله أولاً وعلى كتفه ضحيته. . وحسر الجند اللفائف وكشفوا في وجه القتيل وصرخ عبد الجبار وخر صاعقا. .!

لقد قتل ابنه خطأ. . .! واستيقظ رضا فزعا فأدرك كل شيء، وأعلن أنه كان ينوي أن يبيت في المندرة لولا أن احمد رأى أنها رطبة لا تلائم الضيف فنقله إلى غرفة أخرى وأخذ مكانه في المندرة.!

وكان يوم الحكم أكتظت القاعة بالوفود ووقف القاتل في القفص يبكي في إطراق طويل ومرارة ملتهبة وحسرة لجوج، وساد السكون فجأة لما ارتفع صوت القاضي يدوي في القاعة قوياً جلياً هادئاً (تحويل اوراق المتهم لفضيلة المفتي).

وقاد الجند الرجل المحطم إلى قاعة النيابة في أعلى المحكمة وهو. لا يزال ينشج كالأطفال. . . وغافل الرجل المحطم الحراس وألقى بنفسه من أعلى المحكمة فهوى جسدا هامداً من اللحم والعظم.